النكبة مجدداً

بيان نويهض الحوت *

المؤرخون الفلسطينيون والنكبة

كيف قرأ المؤرخون الفلسطينيون النكبة؟
تعالج هذه الدراسة التأريخ الفلسطيني للنكبة من المذكرات مع محمد عزة دروزة، إلى اليوميات الموثقة مع عارف العارف، إلى موسوعية مصطفى مراد الدباغ، وصولاً إلى البحث العلمي التاريخي مع وليد الخالدي.
أربعة مؤرخين يمثلون الجيلين الأولين في محاولة تأريخ النكبة وتداعياتها السياسية والاجتماعية والثقافية، بصفتها مفصلاً تاريخياً للحضور الفلسطيني الذي استمر على الرغم من الغياب.

النكبة التي انتهت باحتلال إسرائيل لثلاثة أرباع فلسطين، وتشريد شعبها، وإلحاق ما تبقّى من أرضها بالأردن ومصر وسورية، هي الحدث الاستراتيجي الذي هز الأمة العربية وضميرها ووجدانها.

وكأي حدث استراتيجي له إيجابياته وسلبياته، فإن النكبة أيضاً لها إيجابيات ولم تكن نتائجها كلها سلبيات. وأبرز إيجابياتها نمو المشاعر القومية، فهي حرب تميزت بعروبتها وبطولتها كما قال المؤرخ محمد عزة دروزة، كما أنها الحرب التي لم تبعث اليأس لدى الشعوب العربية على الرغم من هزيمة جيوشها ومرارة تلك الهزيمة، فتلخصت المشاعر السائدة والشعارات القومية بأنه لا بد من حرب مقبلة، ولا بد من نصر مقبل، وقد عاشت الأمة مع هذه المشاعر والشعارات من عام إلى عام حتى كانت النكسة الحزيرانية في سنة ١٩٦٧.

أمّا سلبيات النكبة، وفضلاً عن مآسيها المعروفة، فأبرزها انعدام التوازن بين تلك المشاعر والشعارات وبين التحليل العقلاني المسؤول.

وهنا تكمن أهمية البحث في مسيرة التأريخ لهذه النكبة من طرف المؤرخين الفلسطينيين. أمّا لماذا هؤلاء وحدهم؟ فذلك لكونهم أول مَن يتحمل مسؤولية التأريخ لوطنهم، والبحث عن نتاجهم يقع في إطار التكليف الطبيعي والمنطقي الذي أُلقي على عاتقهم. لكن.. كيف نجد هؤلاء؟ وما قواعد البحث عنهم؟

نحن نبحث عن المؤرخين الذين لم يعاصروا النكبة فحسب، بل عاشوها أيضاً؛

* مؤرخة فلسطينية.

نبحث عن الذين يُفترض فيهم أن يكونوا المؤرخين الذين تسعى وراءهم أجيال بعد أجيال تبحث عن مؤلفاتهم، أي أننا وراء الذين طوّبهم الشعب الفلسطيني مؤرخين كباراً، وتوقع منهم أن يكتبوا له ولأبنائه وأحفاده تاريخ نكبتهم.

أمّا الإشكالية الرئيسية للبحث فهي التالية: النكبة مع جميع أسبابها وتفصيلاتها ونتائجها تبقى جزءاً من كلٍّ بالنسبة إلى أعمال المؤرخ الكاملة، وخصوصية التوقف إزاءها ربما تقود إلى إلحاق الظلم بمؤرخ ما صرف جهوده لتأريخ مراحل أُخرى، أو للكتابة عن قضايا أُخرى؛ غير أن النكبة هي نقطة الارتكاز في القضية الفلسطينية: قبلها كانت فلسطين وشعبها وتاريخها وحضارتها، وبعدها تحول الوطن إلى قضية، وبقيت قضيته هي القضية التحررية الوحيدة المعلقة من قرن إلى قرن، في العالم كله.

وبناء على التوصيف أعلاه، فإن بحثنا سيشمل نتاج أربعة من المؤرخين، هم وفقاً لأعمارهم: محمد عزة دروزة؛ عارف العارف؛ مصطفى مراد الدباغ؛ وليد الخالدي.

محمد عزة دروزة (١٨٨٧ – ١٩٨٤)

يُطلق على محمد عزة دروزة لقب "شيخ المؤرخين"، فهو الأكبر عمراً، وهو أول مَن نشر كتباً عن فلسطين ونكبتها، حين نشر مجموعته السداسية في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين، بعنوان: "حول الحركة العربية الحديثة"، وتشمل تاريخ الحركة العربية وتاريخ فلسطين المعاصر.[١] وأضحت سداسيته هذه على مدى الأعوام هي الأكثر شهرة بين مؤلفاته التاريخية، كما أصبحت الأجزاء الثلاثة، وبينها تلك التي أفردها لفلسطين وقضيتها ونكبتها، هي المرجع الأساسي في مؤلفاته عن فلسطين؛ ولذلك فقد أعاد نشر هذه الأجزاء الثلاثة في مرجع مستقل من جزأين بعنوان "القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها".[٢]

وسنعتمد في بحثنا هذا، الجزءَ الخامس من مجموعة دروزة السداسية، وهو الجزء الذي روى فيه نكبة فلسطين.[٣] كما سنعتمد مذكراته السداسية التي نُشرت في تسعينيات القرن العشرين، وهي تضم إلى جانب المذكرات واليوميات كثيراً من مقالاته.[٤]

بداية، لا بد من القول إن الأهمية الكبرى لمؤلفات دروزة عن التاريخ الحديث، تنبع من كونه شاهداً على عصره، فهو من أوائل المناضلين في الحركة العربية، وكان من أبرز أعماله في فلسطين إدارته مدرسة النجاح في نابلس (١٩٢٢ – ١٩٢٧)، حيث نشأت أفواج من الطلبة على المبادئ القومية بإرشاده. وقد وصلت شهرته إلى المغرب العربي، وأذكر أنني سألت يوماً المناضل المغربي الكبير محمد البصري عن بداية وعيه بالعروبة، وكان من أجمل ما قاله لي أنه لا ينسى يوم كان فتىً أنه ذهب مع رفاقه في المدرسة إلى الشاطئ لوداع خمسة طلاب من الصفوف الثانوية كانوا سيسافرون بالباخرة إلى فلسطين، للدراسة في مدرسة النجاح. وسمع يومذاك أن الأهالي يرسلون أولادهم إلى هذه المدرسة بالذات في نابلس البعيدة، ثقة منهم بمديرها الأستاذ محمد عزة دروزة، ورغبة في أن ينشأ أولادهم على مبادئ القومية العربية على يد هذا المجاهد والمربي الكبير.[٥]

وعندما تألف حزب الاستقلال العربي في فلسطين في سنة ١٩٣٢، كان دروزة من مؤسسيه ومن خطبائه، وكان من معتقلي صرفند. أمّا أبرز أعماله النضالية فكان ترؤسه اللجنة المركزية للجهاد في دمشق في أثناء المرحلة الثانية من الثورة الكبرى في فلسطين (١٩٣٧ – ١٩٣٩)، وعمله كهمزة وصل بين المفتي الحاج أمين الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا المقيم آنذاك في لبنان، وقادة

الثورة؛ كما أنه خلال حرب ١٩٤٨، كان من أكثر المطلعين على مجريات الأمور في أروقة جامعة الدول العربية، إذ كان عضواً في الهيئة العربية العليا، وقد استمرت صداقاته مع كبار المسؤولين العرب في الجامعة العربية حتى بعد استقالته منها، الأمر الذي كان له أثر واضح في كتابته عن النكبة.

ومن أجل إنصاف هذا المناضل والمؤرخ، لا بد من التوقف عند طبيعة عصره والنتاج الفكري لرفاقه في الحركة العربية، مثلاً: تحسين العسكري؛ فائز الغصين؛ أحمد قدري؛ أسعد داغر. ومن المؤلفات الأولى نذكر كتاب: "القضية العربية..." من ستة أجزاء لأحمد عزت الأعظمي، وكتاب: "الثورة العربية الكبرى" من ثلاثة مجلدات لأمين سعيد.

ففي تلك المرحلة لم يكن هناك حدود بين الذكريات الشخصية وكتابة البحث التاريخي، بل إن مجرد ذكر اسم صاحب المذكرات أو صاحب الكتاب كان يبعث الثقة في نفوس القراء كون المؤلف هو صاحب التجربة، وهو الشاهد الذي يعرف ما لا يعرفه سواه. وفي هذا السياق كان دروزة كغيره من رفاقه، وهو مَن وصف مؤلفاته تلك بنفسه قائلاً إنها "تاريخ ومذكرات وتعليقات"، وهذا هو العنوان الفرعي لمجموعته: "حول الحركة العربية الحديثة"، ولكتابه: "القضية الفلسطينية". كما أن أغلبية كتابات رفاقه من أصحاب المذكرات أو المؤلفات، احتوت بشكل أساسي على الذاكرة والتجربة والشهادة، غير أنه كان يُنظر إليها ضمن هذا الإطار فقط، وليس من خلال إطار الكتابة التأريخية الشاملة، ولم يكن أصحابها ـ في معظمهم ـ يُصنفون مؤرخين.

ويتفق دروزة مع رفاقه أولئك في أنه هو الآخر يعتمد بشكل أساسي على الذاكرة وعلى ما تمكن من حفظه من أوراق، لكنه يختلف عنهم في كونه يُعتبر من كبار المؤرخين، إذ لا يصح اعتماد المؤرخين على الذاكرة وحدها، فأهمية المؤلفات التاريخية تكمن في تعدد مصادرها.

ويروي دروزة أنه حين ابتدأ بكتابة سداسيته "حول الحركة العربية الحديثة" خلال الحرب العالمية الثانية في تركيا ـ أي في المنفى ـ لم يكن لديه مصادر أو مراجع إلاّ الذاكرة. كما أنه سجل في نهاية الجزء الخامس تحت عنوان "استدراك" ما يلي: "كتبنا ما تقدم في شهر كانون الثاني [يناير] من سنة ١٩٥١ وأعددناه للطبع..."[٦] أي أن الكتاب الذي أفرده لتأريخ مرحلة النكبة، كتبه في شهر واحد فقط. ويؤكد دروزة بنفسه الطبيعة المذكراتية لمؤلفاته التاريخية حين يقول: "وما كتبناه في الجزأين الرابع والخامس حول الحركة العربية هو في الحقيقة في باب المذكرات"،[٧] وهو يقترح على مَن سيتولى نشر مذكراته التالي: "فإننا نرى أن يعاد طبعهما ليكونا في سلسلة أجزاء المذكرات..."[٨]

إن المؤرخ الشيخ دروزة هو من الذين اشتهروا بمؤلفاتهم في أكثر من باب، وخصوصاً في شرح معاني القرآن الكريم، وفي الموضوعات الإسلامية والتاريخية والإسرائيلية، وكذلك في موضوعَي القومية العربية والوحدة العربية، وهو من المعروفين بغزارة الإنتاج، إذ صدر له أكثر من أربعين مؤلفاً، وكثير منها يتألف من جزأين أو عدة أجزاء. وقد أعاد الدراسة والنظر في العديد من مؤلفاته الإسلامية قبل نشرها، أمّا كتابه عن الوحدة العربية، فكان متميزاً حين صدوره في سنة ١٩٥٧.[٩]

ويتناول بحثنا موضوع "النكبة" بالتحديد، وهو موضوع سياسي معاصر على أعلى مستوى من الأهمية، غير أن دروزة يعتبر أن ما كتبه من الذاكرة كاف للإحاطة بتاريخ تلك المرحلة. ومع أن هذه النظرة تنتقص من النهج التأريخي لديه، إلاّ إنها لا تلغي أهمية كتابه الذي تناول فيه النكبة، فهو مرجع غني بالتطورات الدولية والمساعي العربية التي كان ملمّاً بها وأحد

الشهود عليها؛ غير أن هناك ملاحظات لا بد من التوقف عندها:

- لا يذكر دروزة تفصيلات عن سقوط المدن الفلسطينية الواحدة تلو الأُخرى في نيسان/أبريل ١٩٤٨، أي في أثناء الحرب ضد التقسيم، وإنما يكتفي بالقليل جداً من المعلومات أو حتى بمجرد ذكر الحدث.[١٠] غير أن هناك استثناء لكارثتَي اللد والرملة، إذ يجد القارئ سرداً جيداً ومفصلاً.[١١]
- لا يذكر دروزة تفصيلات عن أعمال العديد من القادة المسؤولين، أمثال القائد فوزي القاوقجي أو الشيخ حسن سلامة، وإنما يكتفي بذكر الأسماء من غير الخوض في عملياتهم العسكرية ومسؤولياتهم. فاسم القاوقجي مثلاً يتردد عبر الكتاب، غير أن القارئ لا يستطيع أن يكوّن صورة عن أعماله.
- هناك تفاوت بين المديح لبعض الملوك في مكان ونقيضه في مكان آخر. فهي ينقل، مثلاً، تصريحاً للملك فاروق جاء فيه أنه: "إذا دخلت الجيوش العربية إلى فلسطين لإنقاذها فيود أن يُفهم بصراحة أنه يجب النظر إلى هذا التدبير كحل موقت خال من كل صفة من صفات الاحتلال والتجزئة وأنها بعد تحريرها تسلم إلى أهلها ليحكموها كما يريدون." ثم يذكر تعقيباً للملك عبد الله على كلام فاروق: "إنه لنطق كريم فاه به ملك عظيم."[١٢] وفي تصريح للأمير عبد الإله: "لتطمئن الشعوب العربية جميعاً ففلسطين هي قلبي وقد دنت ساعة العمل الفاصلة وإن غداً لناظره لقريب."[١٣] ونقل عن الملك عبد الله في بداية الزحف: "وأدلى الملك عبد الله بصفته القائد الأعلى للجيوش بتصريح خطير جاء فيه أننا عقدنا الخناصر على أن نخوض المعركة حتى نهايتها فأمّا أن نعيش شرفاء كراماً وإمّا أن تفنى الأمة العربية عن آخرها."[١٤] وفي مواضع أُخرى عديدة يضع اللوم على الذين امتدح تصريحاتهم.
- من المستغرب أن يخلو كتاب دروزة عن مرحلة النكبة من ذكر أي دور للمفتي الحاج أمين الحسيني، رئيس الهيئة العربية العليا، إذ إن اسمه لم يرد إلاّ في مرات نادرة عابرة، فهو يذكره مثلاً في معرض طموح الملك عبد الله منذ القديم إلى ضم فلسطين إلى مملكته: "ويبدي [الملك] تجهما نحو الهيئة العربية العليا وخاصة نحو المفتي رئيسها."[١٥] ويذكره مرة ثانية يوم إنشاء حكومة عموم فلسطين، فيقول: "وانعقد المجلس برئاسة الحاج أمين الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا..."[١٦]
- من المعلوم أن العلاقة بين المؤلف والمفتي انقلبت من ود شديد إلى خصومة شديدة، غير أن المؤرخ مطالب بكتابة التاريخ، لا بالخضوع لطبيعة علاقاته الشخصية. فالمفتي كرئيس للبلد كان يستحق من المؤرخ أن يتوقف عند سياسته وأعماله بوضوح، وأن يقول للأجيال أين أخطأ وأين أصاب.
- لقد كان واضحاً كم كان دروزة يملك من معلومات عمّا كان يجري في جامعة الدول العربية، غير أن كتابته عنها اتصفت بإسهاب أحياناً، وباختصار شديد أحياناً أُخرى. ومما لا شك فيه أن المعرفة الشخصية أدت دوراً في امتداحه كثيرين، كما في تهجمه على غيرهم. غير أنه مع ذلك، يجب القول إن ما كتبه عن الجامعة العربية والقرارات الدولية كان الجانب الأهم في كتابه عن النكبة.

ويبقى الحكم على الكتاب في إطار المذكرات، أسوة بمعظم رفاقه من أصحاب المذكرات، شيء، وفي إطار الكتابة التاريخية شيء آخر، وكم كنا نتمنى لو أنه أعاد النظر في كتبه هذه كما أعاد النظر في غيرها، بصفته

شيخ المؤرخين.

أمّا مذكرات دروزة فتتألف من ستة مجلدات، وفيها يجد القارئ بعضاً من التفصيلات عن الشخصيات السياسية التي كان لها دور في زمن النكبة، وكذلك نقداً حيث يُتوقع النقد، أي أن القارئ يجد بعض ما افتقده في كتابه عن النكبة. وللمفتي الحاج أمين الحسيني في مذكرات دروزة موقع مختلف عن ذاك الذي له في الجزء الخامس من السداسية، فالمفتي يحتل المكانة الكبرى في المذكرات. والواقع أن العلاقة الوثيقة بينهما تعود إلى بداية الثلاثينيات حين عمل دروزة معه في المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى، ثم جمعتهما الثورة الكبرى وتعاونا معاً، يوم كان المفتي في لبنان ودروزة في دمشق، ثم لم يفترقا في المنفى بعد قيام الحرب العالمية الثانية. وكان دروزة يعتبر المفتي الزعيم الأوحد إلى أن التحق بالهيئة العربية العليا، إذ لم يمضِ عام على عمله في الهيئة حتى انقلب نهائياً على المفتي واستقال من منصبه في تموز/يوليو ١٩٤٧. وفي القسم الأخير من مذكراته سجل، وبعنف شديد، انتقاداته للمفتي في مواضع متعددة، مركزاً على فرديته،[١٧] بيد أنه لم ينتقد أحداً من كبار رجال الجامعة العربية، أو أياً من الملوك أو الرؤساء، أصحاب القرار والمسؤولين عن النكبة بشكل مباشر، كما انتقد المفتي، هذا في الوقت الذي كان القارئ يتوقع من المؤرخ تحليلاً شاملاً عن النكبة، ولو مختصراً، إلاّ إنه لا يجد سوى آراء متفرقة.[١٨]

ولم يقف دروزة الموقف نفسه من الثورة العربية الكبرى، فقد تقدم بتحليل نابع من تجربته وفكره وشعوره بالمسؤولية، ورأى أن الأمة العربية، لو كانت، في خضم الحرب العالمية الأولى، أكثر حيوية وأشد نضجاً، لكان في إمكانها الاستفادة من الوعود التي قُطعت لها، كما رأى أن الثورة العربية بكل مجهوداتها الحربية كانت رافداً للحلفاء لا أكثر، وأنها لا تملك أي تأثير في نتائج الحرب. لكن لولا تلك الوعود، ولولا تلك الثورة، لما تمكن العرب من القيام بثوراتهم فيما بعد ضد الاستعمار، ولكانت وطأة البلاء الاستعماري على بلادهم أشد وأقوى، أي أنه رأى أن الثورة كان لا بد منها للانطلاق بالأمة مهما تكن النتائج.[١٩]

لكن ما يحزنني قوله هو أنني لم أعثر في كتابات دروزة على تحليل بالمستوى نفسه لنكبة فلسطين.

عارف العارف (١٨٩٢ – ١٩٧٣)

اشتُهر عارف العارف بأنه مؤرخ النكبة، على الرغم من أنه ترك للمكتبة العربية مجموعة من المؤلفات عن تاريخ فلسطين لا عن النكبة وحدها، إذ كتب عن مدن فلسطين، وعن المقدسات، وعن مسائل متعددة تتعلق بالقضاء والمجتمع والعادات والتقاليد.

واستفاد العارف من تنقلاته ـ بحكم عمله الإداري ـ في البحث والتنقيب عن المصادر، وأول عمل إداري قام به كان في بئر السبع حيث عُين مديراً للمنطقة، وقد استقر فيها عشرة أعوام تمكن خلالها من إصدار كتابين هما: "القضاء بين البدو" (١٩٣٣)، و"تاريخ بئر السبع وقبائلها" (١٩٣٤)، كما أصدر كتباً عن تاريخ غزة وعسقلان. ولمّا استقر في رام الله مساعداً لحاكم لواء القدس حتى نهاية الانتداب، قام بعدة دراسات عن القدس وتاريخها. وفي أعقاب النكبة عيّنه الملك عبد الله حاكماً عسكرياً لقضاء رام الله، ثم رئيساً لبلدية القدس ما بين سنتَي ١٩٤٩ و١٩٥٥، فكانت تلك السنوات الحاسمة في تاريخ فلسطين بالنسبة إليه العامل الأكبر في قيامه بمشروعه الضخم، وهو توثيق النكبة بجميع تفصيلاتها، وبكل ما استطاع من جهد. وتولى العارف وزارة الأشغال في الحكومة الأردنية، وكذلك منصب مدير متحف الآثار الفلسطينية في القدس، في سنة

١٩٦٧، غير أنه لم يتوقف عن إصدار الكتب، وكان معظمها عن تاريخ المقدسات الإسلامية والمسيحية في القدس، وأكثرها شهرة كتابه "المفصل في تاريخ القدس" (١٩٦١).

واعتقد البعض أن أعمال العارف الإدارية لها الفضل الأكبر في فسح المجال أمامه للبحث والتأليف، وإذا كان ثمة شيء من الصحة في هذا الاعتقاد، فإن تجارب العارف الوظيفية لم تكن السبب الأوحد، وإلاّ لكان في إمكان أي حاكم إداري أو محافظ أن يتحول تلقائياً إلى مؤرخ!! ذلك بأن العارف كان، منذ مطلع شبابه، منصرفاً إلى الثقافة، ومقبلاً من دون انقطاع على مزيد من العلم.

لقد درس عارف العارف، ابن القدس، الإدارة والاقتصاد في إستانبول، وبعد الحرب الكبرى درس في الكلية العسكرية، ثم حارب كضابط عثماني في القفقاس، وتعرض للأسر عامين في سجون سيبيريا، قبل أن يتمكن من الفرار بعد قيام الثورة البلشفية في سنة ١٩١٧. وأبرز ما يميز هذه الفترة من حياته استمراره في التعلم، إذ أقبل في سيبيريا، على الرغم من الأوضاع القاسية التي يعيشها السجناء، على تعلّم اللغتين الروسية والألمانية، معلناً بذلك نهجه في الحياة: الحياة عِلم وعمَل، ومن دون انقطاع.

أمّا كتابه الأشهر: "النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود"، فيتألف من ستة أجزاء،[٢٠] وقد أضاف العارف إليه مجلداً خاصاً أطلق عليه "النكبة في صور".[٢١] وهذه المجلدات السبعة تُعتبر مراجع العارف الرئيسية عن النكبة، إذ شرح في الأجزاء الأربعة الأولى منها تاريخ النكبة بأدق التفصيلات، بينما يُعتبر الجزء الخامس مرجعاً وثائقياً يتضمن أهم وثائق المرحلة،[٢٢] أمّا الجزء السادس فسجلّ لأسماء الشهداء.[٢٣]

وقد شرح المؤرخ نهجه في كتابة التاريخ ومفهومه للتاريخ في مقدمة الجزء الأول، قائلاً:

> *فمن واجبنا أن ندوّن الحوادث التي حدثت، كما حدثت، وأن نذكرها كما هي قبل أن ينسج الدهر عليها خيوط النسيان.*
>
> *إنّا إذا ما فعلنا ذلك كان لدى المؤرخين التابعين، عندما يأتي اليوم الذي يصح فيه التاريخ، سطور يستطيعون الركون إليها... [النقاط وضعت في الأصل] سطور تدعمها الوقائع والأسماء والأماكن والأرقام.*[٢٤]

وأكد العارف أن التاريخ يُكتب بصدق بعد مرور ربع قرن وأكثر: "إذ إن الكاتب مهما أوتي من عدل وحكمة وصدق ونزاهة، لا بد أن يكون عند حدوث الحادث متأثراً بمصالحه الذاتية أو الحزبية أو القومية أو الدينية..."[٢٥] كما أنه نفى عن نفسه صفة المؤرخ مؤكداً أنه ليس سوى راوية، إذ قال:

> *إنني في كتابي هذا (راوية) يريد أن يقول للناس ما حدث، وقد آليت على نفسي ألاّ أروي إلاّ ما رأيت بأم عيني، وما رواه لي العدل الثقات، مستهدفاً في الحالين أن أدون الوقائع قبل اندثارها...*

وقال أيضاً أنه يكتب يومياته منذ أربعين عاماً، أمّا منذ صدور قرار التقسيم فقد كان يومياً يكتب "غير متملق أحداً من الناس، ملكاً كان أو زعيماً، حاكماً أو محكوماً، غنياً أو فقيراً."[٢٦]

أحقاً كان العارف مجرد راوية كما قال، أم كان "مؤرخ النكبة" عن جدارة؟

لم يترك العارف مصدراً من الوثائق والتقارير العسكرية والمخطوطات، أو من المراجع والمؤلفات المتداولة في زمانه، إلاّ حاول الوصول إليه، والاستعانة به، وقد نجح في معظم محاولاته تلك، وهذا يشمل المصادر العبرية والأجنبية، فضلاً عن العربية، علاوة على لقاءاته ومقابلاته مع مسؤولين ودبلوماسيين عرباً وأجانب، وكذلك المذكرات المخطوطة لكثيرين من رجالات فلسطين، والتي تمكّن من الوصول إليها بحكم صداقاته

ومعارفه، مثلاً مذكرات رشيد الحاج إبراهيم التي صدرت بعد نحو نصف قرن من اطلاع العارف عليها. ومن المصادر النادرة التي لم يطلع عليها سوى عدد محدود جداً من الباحثين حتى من بعد العارف: "تقرير لجنة التحقيق النيابية العراقية في قضية فلسطين"، وهو تقرير سري لا غنى عنه لمعرفة حقيقة ما كان يجري في اجتماعات مجلس الجامعة ومؤتمراتها.[٢٧]

ولم يكتفِ العارف بمقابلة مَن كان يعرفهم، أو مَن كانوا في الجوار، بل سعى لمقابلة كل مَن يعتقد أن لديه مزيداً من الحقائق، الأمر الذي استدعى سفره إلى العواصم العربية المجاورة بعد انتهاء الحرب، لإجراء مقابلات مع مسؤولين وضباط عرب، وللاطلاع على مقالاتهم وتصريحاتهم في الصحف العربية التي لم يكن ليتمكن من الحصول عليها.

وبذل المؤرخ جهداً كبيراً لجمع ما يستطيع جمعه من تقارير رسمية وعسكرية، ومن شهادات الشهود عن سقوط كل مدينة، وكل معركة، وكل مجزرة. والعارف أول وأفضل من أرّخ لاستشهاد القائد عبد القادر الحسيني في القسطل، مع أدق التفصيلات عن لقاءات القائد الأخيرة في دمشق، وعنه أخذ مَن جاء بعده من الباحثين والمؤرخين. وكان قاسم الريماوي، الرفيق والمرافق للقائد في تحركاته، والذي كان معه في الأسابيع الأخيرة، أبرز مَن اعتمد عليهم العارف.[٢٨]

ويتميز أسلوب العارف بالسرد المبسط من دون أن يبذل مجهوداً في الصيغة، وما ذلك إلاّ لأن انصرافه الأول والأخير هو لتقديم جميع ما لديه من معلومات، خشية منه على ضياعها. والطريف حقاً أنه من شدة حماسته للتشديد على أهمية مصدر ما، كان يسجله في المتن ضمن النص، غير آبه بالحواشي.

علاوة على ذلك، يتميز العارف بوقوفه على معلومات لم تكن لتتوفر لأحد غيره آنذاك، فهو ينقل عن إسماعيل صفوت باشا، رئيس اللجنة العسكرية المنبثقة عن جامعة الدول العربية، أنه رفع تقريراً مفصلاً قبل قرار التقسيم بيومين حدد فيه بالتفصيل قوى اليهود والقوى العربية، غير أن الجامعة لم تطبق قراراً واحداً من تقريره.[٢٩] كما أنه رفع تقريراً سرياً مفصلاً في ١٩٤٨/٣/٢٣ طالب فيه بنزول الجيوش العربية إلى الميدان بكل ما تملك من أسلحة، غير أن أحداً من السياسيين لم يصغ إليه؛[٣٠] والأمر نفسه جرى مع طه الهاشمي.[٣١] وما هذه الأمثلة سوى نماذج لما كان يجري داخل الجامعة العربية.

وتوقف العارف مطولاً إزاء البطولات المجهولة في شتى الميادين، فنقرأ لديه عن أحمد حسين هرماس، المواطن المقدسي الذي تمكن من إنقاذ مكتبة الكلية العربية على جبل المكبر، بينما كان اليهود يحاولون الاستيلاء عليها، فأنقذ أكثر من ١٣,٠٠٠ كتاب، كان مصيرها أن تستقر في الكلية الرشيدية.[٣٢]

وقدّم العارف نفسه بأنه جامع لأحداث التاريخ ومصادره، وتمنى أن يحلل المؤرخون من بعده ما جرى، نافياً عن نفسه صفة المحلل والناقد، بيد أن سرده للأحداث تضمن كثيراً من التحليل والنقد:

- رأى العارف أن من أسباب الفشل في الميدان وجود قائدين في مكان واحد، أحدهما عيّنه المفتي، والثاني عيّنته الجامعة العربية، وقدّم الأمثلة العديدة لهذا.[٣٣]
- قال إن عدم اتخاذ الهيئة العربية العليا من القدس مقراً لها، كان خطأ لا يغتفر،[٣٤] وإن من أهم أخطاء المفتي تعيين خالد الحسيني خلفاً للقائد عبد القادر الحسيني، وذلك لعدم كفاءته.[٣٥]
- رأى أن تسليم الملك عبد الله القيادةَ العامة لم يكن لمصلحة العرب، وذلك لوجود غلوب باشا قائداً لجيشه، ولكون سلاح الجيش

بريطانياً، والضباط، في معظمهم، بريطانيين، والمال بريطانياً. وانتقد موافقة الملك عبد الله على التقسيم،[٣٦] بينما كانت مواقف الملك المعلنة تصب في مصلحة القتال والزحف حتى تل أبيب.

- ناقش مطولاً الخطط العسكرية وكيف كان غلوب باشا يستبدلها بغيرها، وناقش كيف لم يُسمح للجيش المصري بالتقدم نحو القدس.[٣٧]
- أهم أسباب النكبة في قناعته: قلة السلاح؛ عدم التنسيق؛ النقص في عدد المقاتلين العرب؛ الخلافات بين المقاتلين كما حدث بين القوة الأردنية والمتطوعين المصريين؛ انسحابات هذا الفريق أو ذاك من الميدان؛ صدور أوامر بالانسحاب غير مبررة.

كان ذاك هو أسلوب العارف المباشر في النقد، أمّا أسلوبه غير المباشر فكان حين ينقل عن لسان الغير، كما فعل عندما روى ما قاله له شكري القوتلي، رئيس جمهورية سورية، عن اجتماعه بالملك عبد الله في درعا، بتاريخ ١٩/٥/١٩٤٨، بحضور رياض الصلح وجميل مردم وعبد الرحمن عزام، إذ قال إن القوتلي سأل الملك عن أسباب تغيير الخطة العسكرية، فقال له الملك أنه "سوف يحتل القدس غداً، وتل أبيب بعد أسبوع!"[٣٨]

كذلك نقل عن مقالة لعبد الرحمن عزام أنه بعد أن مضت أيام لم تهاجَم فيها القدس المحتلة، ذهب عزام لمقابلة الملك عبد الله ومعه الأمير عبد الإله، وقال للملك: "يا سيدنا أنا رجل يحس أن رأسه على المشنقة، وأنا غير مطمئن للذي يحدث في القدس. ومن واجبي أن أصارحك بهذا، فإمّا أن تأمر بالاستيلاء على القدس القديمة فوراً ثم بعدها نهاجم القدس الجديدة، وإمّا أن أقف أمام الشعوب العربية، وأصارحها بمخاوفي..."

ويذكر عزام أن الملك عبد الله أمسك بلحيته ولزم الصمت فترة ثم قال: "يا عزام... أنا لا أقصد القدس القديمة فقط أو القدس الجديدة بعدها. وإنما أنا ماض بعون الله إلى تل أبيب، فاصبر عليّ." وهنا قال له عزام: "إذا دخلت إلى تل أبيب فسوف أقف فيها وأتوّجك حتى ضد الأمة العربية كلها." فقال له الملك عندئذ: "انتظر عليّ، سوف نهاجم القدس القديمة، ونطهرها، وسوف نحاصر القدس الجديدة ونسقطها بالحصار.. وبعدها تل أبيب.."[٣٩]

ويقول العارف إنه بعد أن سمع الناس كلاماً كثيراً فحواه أن الملك عبد الله لن يغمد سيفه قبل أن يفني اليهود عن بكرة أبيهم، وأن الدول العربية كلها لو انسحبت من الميدان، فهو سيظل يقاتلهم حتى يقضي الله بينه وبينهم، عادوا فسمعوا كلاماً كثيراً عن أنه كان يبطن غير ما يُظهر؛ ويروي العارف كيف أرسل الملك رئيس حكومته توفيق أبو الهدى إلى لندن كي يطمئن إرنست بيفن وزير خارجية بريطانيا بأنه، وإن كان سيأمر جيشه بدخول فلسطين، إلاّ إنه سيقف عند حدود التقسيم.[٤٠]

في الجزء السادس من كتابه "النكبة..." تظهر النكبة مجسدة بأسماء الشهداء، ومعطرة بالشجاعة والبطولة. وقد أضاف المؤرخ إلى أسماء الشهداء أسماء مدنهم وقراهم، مع تاريخ استشهاد كل منهم، ومكان استشهاده، علاوة على أي معلومات إضافية تمكّن المؤرخ من جمعها. أما كيف تمكن وحده من جمع آلاف الأسماء، ومع أدق التفصيلات، مع أن مجهوداً كهذا يُفترض أن يقوم به فريق من الباحثين، فالرد عليه هو ما كان يتحلى به العارف من صلابة لا تلين، ومثابرة لا تكل، وهو الذي يعلم جيداً بأن لا شيء يضاهي وقع الأسماء الحقيقية في النفس البشرية، إذ إن لها تأثيراً يضاهي الصورة، بل يتفوق على الحكاية نفسها. الاسم يقول: أنا كنت يوماً حياً، أنا إنسان.

وفي مجلده المستقل الأخير، أي "النكبة في صور"، أكمل المؤرخ من خلال الصور التي لم

يُنشر قسم كبير منها من قبل، كما من خلال تعليقاته على الصور، ما لم يقله في المجلدات التاريخية،[٤١] فقد نشر صوراً للمجاهدين اليوغوسلافيين الذين اشتركوا في حرب فلسطين، مع أسمائهم،[٤٢] وصوراً للإخوان المسلمين الذين حاربوا مع المتطوعين، وفي طليعتهم القائد أحمد عبد العزيز.[٤٣] أمّا تعليقه على صورة للملك عبد الله، فكان: "لعب دوراً خطيراً في نكبة فلسطين. كان من رأيه التقسيم ودخل جيشه فلسطين وهو معتزم الوقوف عند الحد الذي رسمته هيئة الأمم. ولكنه لم يصارح شعبه..."[٤٤]

والحق أن العارف استمر في جهوده في جمع أسماء الشهداء والمعذبين خلال مرحلة ما بعد النكبة، وذلك في مجموعته "أوراق عارف العارف" التي أصدرها في طبعتها الأولى في ستة مجلدات، والتي تابع فيها عذاب شعبه الفلسطيني، فللنكبة ذيول ومضاعفات وعذابات، وهي لا تنتهي بالهدنة الثانية الدائمة. وهكذا تضمنت أوراقه في المجلد الأول أسماء الشهداء، وأسماء المعتقلين،[٤٥] وقد استمر المؤرخ في مجموعته هذه، في جمع أسماء وتفصيلات عن المعذبين في السجون، وعن المبعدين عن بلادهم، وعن المباني والدور التي هدمها الإسرائيليون، وذلك في المرحلة الزمنية ما بين سنتَي ١٩٦٧ و١٩٧٣. ولم يتوقف قلمه، ولا همته عن البحث والتنقيب، وإنما استكمل ذيول النكبة في الكتابة عن مآسي السكان في غزة، ورفح، والنقب، وبئر السبع.

لقد كان عارف العارف، وعن جدارة، مؤرخاً لتلك النكبة.

مصطفى مراد الدبّاغ (١٨٩٨ – ١٩٨٩)

إنه مؤرخ فلسطين. وعلى وجه الدقة والإنصاف، هو مؤرخ كل مدينة وقرية وعهد، ومؤرخ البشر والحجر والشجر. هو "منصف الموتى من الأحياء"،[٤٦] وهو مَن سجّل أسماء الأبطال الذين لم تُعرف أسماؤهم في حرب النكبة، وسطّر أعمالهم البطولية المجهولة، من غير أن يدّعي يوماً أنه المؤرخ الأوحد. هو مَن أرّخ أعمال العظماء عبر مراحل التاريخ، ومَن كان اهتمامه بالإحصاءات يأتي قبل أي شيء. هو مَن ألغى الحدود ما بين التاريخ والجغرافيا، ومَن صرف عمره في البحث والتنقيب والكتابة. وهو أيضاً أحد ضحايا النكبة بامتياز، إذ فرضت عليه الأقدار أن يكتب التاريخ مرتين لا مرة واحدة، وذلك بعد أن ضاع منه جهد العمر مع الأمواج المتلاطمة، خلال الأحداث التي مر بها في يافا في أواخر نيسان/أبريل ١٩٤٨، فيقول في مقدمة كتابه الأول من موسوعته "بلادنا فلسطين":

> *... ثم اشتدت الحالة سوءاً فقُطع النور والماء ونفد ما لديّ من الخبز.. [النقاط موجودة في الأصل] وأخيراً جاء ابن عمي، وكان قد استأجر مركباً صغيراً من مصر ليافا لينقل فيه أخواته، فلم يدعني حتى نزلت على رأيه بالسفر معه، ولم أحمل معي سوى حقيبتي الصغيرة وبها مخطوطة كتابي عن تاريخ فلسطين وجغرافيتها البالغ عددها أكثر من ٦٠٠٠ صفحة؛ كتابي الوحيد، نتاج عمري، الذي سلخت أكثر من عشرة أعوام في جمع وثائقه وتبويبه وكتابته. وحمدت الله على أنني أرسلت زوجي وولديّ قبل ذلك بأيام إلى أهلهم في بيروت.*
>
> *اتخذت مع أبناء العم والأصدقاء مكاناً في السفينة الصغيرة... كان البحر هائجاً... والرياح فوقه تعصف والأمطار تهطل بشدة. وأخذ الماء يدخل المركب من جميع أطرافه. وأخذ صوت الربان يرتفع آمراً بتخفيف الحمل وإلّا فالغرق أمر محقق!*

احتضنت حقيبتي التي فيها كتابي،
ولكن يد بحار قوية، تساعده موجة دخلت
ظهر السفينة، انتزعت الحقيبة وقذفتها إلى
الماء...[٤٧]

بعد أن انتهت مرحلة الذهول، عاد الدباغ إلى مزاولة عمله الذي تفوّق فيه، وهو ميدان التربية والتعليم، فهو عمل في فلسطين مديراً لعدة مدارس وشغل منصب مفتش معارف في عدة ألوية كان منها لواء نابلس واللواء الجنوبي، أمّا بعد النكبة فأبرز أعماله كان في الأردن حيث عمل وكيلاً لوزارة المعارف حتى سنة ١٩٥٩، ثم في قطر مديراً للمعارف، وأصدر في تلك المرحلة عدداً من الكتب التاريخية عن الوطن العربي، وفلسطين، وقطر، والجزيرة العربية. غير أنه بعد أن استقر في بيروت في أوائل الستينيات، انصرف إلى كتابة موسوعته التاريخية التي لم يصدر مثيل لها.

وأصدر الدبّاغ موسوعته "بلادنا فلسطين" ما بين سنتَي ١٩٦٥ و١٩٧٦، وأكاد أقول إن الهوية الفلسطينية لا تكتمل ما لم يطّلع صاحبها على موسوعة المؤرخ الدبّاغ، فهي "حجر الأساس" في المكتبة الفلسطينية، وذلك لسببين رئيسيين: أولهما، لأنها موسوعة بقلم مؤرخ فرد، وثانيهما لكونها المرجع الأول في بابه، أي في تاريخ وجغرافيا واقتصاد كل مدينة وقرية وكل مكان في فلسطين، فالمؤرخ يتنقل من التاريخ القديم، إلى العهود المتعاقبة حتى عهد الانتداب، متناولاً بدقة متناهية جغرافيا كل مدينة وكل قرية وكل جبل وسهل. وتتشعب التفصيلات لديه من التاريخ إلى الجغرافيا إلى التقسيمات الإدارية، والزراعة، والصناعة، والتعليم، كما أنه يتناول الشخصيات البارزة عبر العصور، مطلقاً عليهم "مشاهير الرجال".

وتوزعت هذه الموسوعة على ١١ مجلداً، وهي تضم في مجموعها أكثر من ٨٠٠٠ صفحة. ووضع المؤرخ ستة عناوين رئيسية لمجلداته، هي: "في الديار النابلسية"؛ "في الديار اليافية"؛ "في ديار الخليل"؛ "في ديار الجليل"؛ "في ديار بيت المقدس"؛ "في بيت المقدس"؛ وقد استوعب بعضها أكثر من جزء. ثم عاد المؤرخ ونشر مجموعته "فلسطينيات" (١٩٧٩ – ١٩٨٦) في ستة أجزاء تناول فيها موضوعات تاريخية عامة، وتاريخ القبائل العربية، فضلاً عن المملكتين النباتية والحيوانية.

لكن ماذا عن النكبة؟ متى كتب عنها؟ وأين؟

ليس للنكبة كتاب مستقل أو موقع مستقل في مؤلفات الدبّاغ، ذلك بأن المؤرخ آثر أن يتناول فلسطين مدينة مدينة، وقرية قرية، وجبلاً جبلاً... ولذلك، فإن تاريخ النكبة جزء من تاريخ المكان، وعلى الباحث عن نكبة مدينة معينة، أن يبحث عن موقعها في موسوعته فيجد في نهاية الصفحات عنها، أو في فصل مستقل تابع لها، سرداً للنكبة التي ألمّت بها.

غير أن القيمة الكبرى لتأريخ النكبة في موسوعة الدبّاغ لا تنبع من كونها مجرد تكملة لأحداث التاريخ والموقع الجغرافي، وإنما في كونها ـ وفقاً لنهجه وأسلوبه ـ تجمع النقيضين معاً، أي العنصر الذي يُنظر إليه كأنه مستقل بذاته أو كأنه منفصل عن التاريخ، والعنصر المكمل للتاريخ. وهكذا تتبدى "النكبة"، في تشتتها وفقاً للفصول التي تحدثت عن تلك المدينة أو القرية، على حقيقتها البشعة أكثر ممّا تبدو في أي مصدر آخر، لأن القارئ بعد أن يطّلع على مكانة المدينة أو القرية عبر العصور، ويعيش في بيوتها، ويمشي في شوارعها وأزقتها، ويمر على بساتينها، ويكاد يقطف من ثمارها، ويقرأ عن شجاعة أهلها ودفاعهم عنها طوال عهد الانتداب، يعيش معهم مأساة نكبتهم، ساعة بساعة، كأنه واحد منهم.

إن مصادر الدبّاغ متنوعة، وهو استعان بالمصادر والمراجع العربية والإنجليزية فضلاً عن أكداس من الوثائق. غير أنه من الملاحظ أن

ثمة بعض التفاوت لديه في الكتابة ما بين أحداث النكبة في مدينة عنها في غيرها، وهذا أمر طبيعي عانى جرّاءه عارف العارف أيضاً، بل لمّح إليه بوضوح معتذراً عن تقصير غير مقصود منه بالنسبة إلى المدن الأبعد التي لم يتمكن من التوصل إلى مصادرها كلها، مثلما توصل بالنسبة إلى الأماكن القريبة منه، إذ كان يلتقي بشكل تلقائي بكثيرين من المسؤولين والضباط، كما أنه كان هو نفسه شاهداً على ما جرى. والدبّاغ أيضاً تمكن، في النهاية، بحكم إقامته ومعارفه وأصدقائه، من أن يكتب عن "يافا" ما لم يتمكن غيره من كتابته.

وتبرز خصوصية الدبّاغ في نهجه التاريخي من خلال عنوان فصله عن نكبة يافا: "معارك يافا في حروب ١٩٤٧ – ١٩٤٨ في عهد الحكومة البريطاني الظالم القتّال"،[٤٨] ولا يعني المؤرخ أن كثيراً من النقاد لا يوافق على وصفه العهد البريطاني بالظالم القتّال، وليس ذلك لكون العهد البريطاني عادلاً مثلاً، لكن لأن الكتابة العلمية المجردة لا يجوز أن تحتوي، برأيهم، على آراء شخصية كهذه، وعلى كلمات كهذه. والواقع أن مؤرخينا الثلاثة: دروزة والعارف والدبّاغ، يتشابهون إلى حد ما في هذا النمط من الكتابة، غير أن الدبّاغ كان أكثرهم حدة، كونه هو وحده مَن رأى مخطوطته التي لا تُقدَّر بثمن تبتلعها الأمواج بلا رحمة. وربما لذلك وضع المؤرخ العنوان الموحد لموسوعته: "بلادنا فلسطين"، فهذا العنوان ما هو إلاّ لتكريس البديهية الفلسطينية وفحواها أن فلسطين لشعبها، أي: أن فلسطين لنا نحن وليست لغيرنا. وفي تصوري أن الدبّاغ حين اختار عنوانه هذا كان فكره منصرفاً إلى العنوان الأفضل للأجيال القادمة، ولم يكن همه كيف يُترجم العنوان لنشره في لندن أو نيويورك.

وللأمانة العلمية أذكر هنا رأي المؤرخ قسطنطين زريق في كتابة التاريخ، فهو يرى أن المبادئ والقيم التي يؤمن بها المؤرخ، وكذلك الدوافع لديه، هي من العناصر الرئيسية التي تدفعه إلى الكتابة أصلاً.[٤٩]

أمّا فيما يتعلق برواية الدبّاغ لنكبة يافا، فهي رواية نسيج وحدها، كونها لا تقتفي أثر الرواية التقليدية التي رواها كثير من الباحثين. وخلاصة الرواية التقليدية أن يافا قاومت من دون ريب، غير أن الوقفة مع المقاومة تمر باقتضاب أو بعمومية، لتنتهي بتوسع فضفاض حين يصل الكلام إلى الاختلاف بين القادة، هذا الاختلاف الذي كانت أولى نتائجه إضعاف الموقف العربي، ثم سقوط يافا، بينما المؤرخ الدبّاغ ينطلق من عاطفة جيّاشة دفعته إلى التوصل إلى كل مصدر، وكل رقم، وكل تصريح، كي يُظهر للقارئ، في النهاية، ومن خلال المعلومات الموثقة، أن أهل يافا قاوموا الصهيونية بقوة، وأنهم كانوا أبطالاً أقضّوا مضاجع اليهود. ومن أجل ذلك، فهو يستند إلى المصادر العبرية في الدرجة الأولى، ناقلاً عنها كل ما يبرهن على صدق دعواه من أن يافا قاومت بكل شجاعة وتصميم، وأنها نجحت في قهر العدو مرّات عديدة، قبل أن ترفع الراية البيضاء.

وينقل الدبّاغ عن مناحم بيغن، رئيس منظمة الإرغون والقائد العام لحملة اليهود على يافا، اعترافه بأن تل أبيب قاست في تلك الفترة، أي في الحرب ضد التقسيم، من يافا ومن حي المنشية بالذات، وطأة الضرب الشديد، ويعلق الدبّاغ: "وبعد أن شبه 'مناحم بيغن' المنشية بسرطان ملتصق بتل أبيب قال: 'إن القناصين العرب كانوا يرسلون الموت إلى كل مكان، وقد وصل رصاصهم الفتاك حتى العمارة التي تعمل فيها بلدية تل أبيب.'"[٥٠] ويكمل المؤرخ أنه جرّاء الألغام التي استعملها العرب، فإن أحياء يهودية دُمرت بكاملها، وجرى إخلاء غيرها من سكانها، كما أن آلافاً عاشوا في الملاجئ والأقبية أياماً طويلة.[٥١]

وينقل الدبّاغ عن يهود آخرين كيف استولى الرعب عليهم إلى درجة أنهم راحوا يفكرون في الرحيل، واستحضروا العديد من بواخر السفن الكبرى التي رابطت في ثغر تل أبيب استعداداً لنقل السكان، وكان عدد من أغنياء تل أبيب يقضون لياليهم في تلك الأيام على مقربة من الشاطئ وفي البواخر.[٥٢]

أمّا ما لا يجده القارئ إلاّ عند الدبّاغ فهو عن المناضلين المسؤولين عن صنع الألغام والقنابل، وأسمائهم، ومسؤولياتهم، فهو يقول:

أتقن المجاهدون من أبناء يافا صنع القنابل والألغام، فأسسوا مصنعين أحدهما لصنع القنابل اليدوية وآخر لراجمات الألغام والقنابل. ومن الذين عملوا في هذا الميدان "سامي الأصفر" وأخوه. ولما استُشهدا بسبب انفجار بعض الألغام تولى عملهما المهندس الكيماوي سليم الدمياطي، ولما جُرح هذا بسبب انفجار أصابه تولاه فيصل بن الحاج رشيد الطاهر، ولما استشهد هذا بسبب انفجار قنبلة أثناء تجربتها تولاه يحيى الكيالي بمساعدة مهندس ألماني وسميح سليم.

وأمّا مصنع راجمات الألغام وغيره فكان يشرف عليها شباب مثقفون هم: أحمد بدانوره وخالد الطاهر من أساتذة المدارس وزكريا الحشاش.[٥٣]

ويروي المؤرخ أن الحامية ازداد عددها من ٥٤٠ مجاهداً في مقابل ٥٠٠٠ يهودي في البداية، إلى أن أصبح العدد في أواخر آذار/مارس ١٥٠٠ مجاهد، جلّهم من أبناء المدينة ومن المتطوعين اليوغوسلافيين،[٥٤] كما يروي عن معارك نيسان/أبريل ما يشرّف حين كانت المدينة تفرغ من السكان، فيقول إن اليهود هاجموا في ١٩٤٨/٤/٢٣ "تل الريش" بعنف، وتوغلوا، غير أن اليافيين أخرجوهم منه وكبّدوهم ٧٦ قتيلاً في مقابل ٢٣ شهيداً. أمّا في اليومين التاليين فركز اليهود الهجوم على حي المنشية بـ ٨٠٠ مقاتل مزودين بمدافع الهاون والمورتر والمدافع الرشاشة ومقادير كبيرة من القنابل حصلوا عليها من البريطانيين، وتمكنوا في بادئ الأمر من احتلال محطة سكة الحديد ومركز البوليس، إلاّ إن حماة يافا الأبطال تمكنوا من صدّهم وإخراجهم من الأماكن التي احتلوها. وهنا ينقل عن بيغن:

لقد تعلمنا من استحكامات المنشية ما تعلمته جميع الجيوش في الحرب العالمية الثانية في قتال الشوارع، وهو أنك لا تجد استحكاماً أفضل من أطلال البيوت الخربة المهدمة حول خطوط الجبهة وفي قلبها: لقد كان العرب يتخذون من أطلال هذه البيوت وخرائبها خطوط دفاع عن يافا، وقد نصبوا عليها مدافعهم الرشاشة، وظهر لنا أن خطوط الدفاع في جبهة المنشية كانت عميقة جداً مزدوجة مثلثة وخماسية في كل خط منها. ويظهر أنها أقيمت على أيدي خبراء بحيث إذا استطعت الوصول إلى الصف الأول منها فإن الأجنحة والاستحكامات التي تليها تصب عليك النار والكبريت وتعذر عليك الاستعداد للقفزة التالية...[٥٥]

ويكمل بيغن معترفاً بأنهم لم يقدّروا عدوهم قدره، وبأنهم هاجموا يافا بأفضل قواتهم وأحسنها تدريباً خمس مرات في يومين وليلتين، وفي المرات الخمس رُدوا على أعقابهم، وخسروا رفاقاً كثيرين، إلى الحد الذي فكروا فيه في العدول عن الاقتحام، فأصدروا الأوامر بالانسحاب، غير أن منظمة الإرغون خالفت الأوامر لأول مرة في تاريخها واستمرت تحارب.[٥٦]

هذه الصورة المُشرِّفة عن صمود يافا تنتهي بالحكاية المعروفة التي يركز الباحثون عليها، ويرويها الدبّاغ أيضاً، والتي تبدأ بطلب النجدة،

ومجيء الرئيس ميشيل عيسى الذي عيّنه القائد فوزي القاوقجي بديلاً من عادل نجم الدين الذي غضب بدوره فانسحب، وسادت الفوضى والنهب.[٥٧]

ويتّبع المؤرخ في رواياته عن سقوط المدن الأُخرى، النهجَ نفسه، موثقاً كل ما من شأنه تأكيد صمود الفلسطينيين ومقاومتهم، وسنكتفي هنا بالتوقف عند فصله عن مدينة اللد وعنوانه: "نبذة عن جهاد اللديين في سبيل المحافظة على عروبة بلدهم في العهد البريطاني الغدّار". فالمؤرخ يبدأ بأعمال الجهاد من جانب أهل اللد منذ أيام الإضراب الكبير في سنة ١٩٣٦، ويتوقف عند نجاح الثوار في قلب قاطرة على سكة الحديد بين محطتَي اللد وكفر جنس بمهارة بالغة أدت إلى تدهور القاطرة إلى الوادي مع خسائر كبيرة بين الجنود،[٥٨] ثم يروي كثيراً عن بطولات أهل اللد. والدباغ هو المربي والمؤرخ معاً، فهو لا يريد أن تبقى صورة سكان المدينة وهم ينزحون عنها، وإنما يريد تثبيت الصورة الأُخرى، صورة المقاومة أيام سطوة الانتداب البريطاني.[٥٩]

وهكذا.. كان الدبّاغ هو مؤرخ فلسطين ونكبتها.

وليد الخالدي (١٩٢٥...)

ينتمي وليد الخالدي إلى الجيل الثاني من المؤرخين الفلسطينيين عمراً، وإلى طليعة المؤرخين العالميين في الصراع العربي – الإسرائيلي فكراً.

درس الخالدي الفلسفة والدراسات الإسلامية في جامعتَي لندن وأكسفورد، غير أنه بعد أن أنهى المرحلة الأولى من دراسته عاد إلى مدينته القدس حيث مارس مهنة التعليم في كلية الأمة. وكانت عاصمة فلسطين آنذاك تعيش أعوامها الأخيرة بترقب، وكان الخالدي لا يزال شاباً في أول العشرينيات من العمر، وليس من فارق بينه وبين طلابه في الصفوف الثانوية العليا إلاّ ثلاثة أو أربعة أعوام، الأمر الذي سرّع تفاهم الأستاذ مع طلابه، إذ كان بالنسبة إليهم مثالاً يُحتذى، فأحبوه أستاذاً وصديقاً، كما أنه بدوره أحبهم واستمر يذكرهم بأسمائهم حتى بعد عشرات الأعوام. ولا ندري ما السبب في تفضيله طوال حياته لقب الأستاذ على أي لقب آخر، كالدكتور، ولعلّ السبب هو ذكرياته عن عامه ذاك في القدس حين عاد إليها أستاذاً، على خطى أبيه المربي الكبير الأستاذ أحمد سامح الخالدي.

وسافر الخالدي مرة ثانية إلى بريطانيا حيث أنهى دراسته العليا، ثم امتهن التعليم الجامعي في جامعة أكسفورد منذ سنة ١٩٥١، غير أنه ما لبث أن استقال في سنة ١٩٥٦، احتجاجاً على مشاركة بريطانيا في العدوان الثلاثي على مصر، وعاد إلى الوطن العربي حيث استقر في بيروت، وانضم إلى جامعتها الأميركية أستاذاً في دائرة العلوم السياسية حتى سنة ١٩٨٢. وفي تلك السنة غادر إلى الولايات المتحدة، محاضراً في أكثر من جامعة، ثم استقر في جامعة هارفارد التي رحّبت به باحثاً كبيراً لديها في مركز دراسات الشرق الأوسط حيث استمر حتى تقاعده في سنة ١٩٩٧.

ولم يشغل التعليم الجامعي وليد الخالدي يوماً عن أحب الميادين إلى عقله ووجدانه، وهو ميدان البحث والتأليف، وكان هذا الحب هو مدخل الخالدي كي يُقدِم مع مجموعة من رجال الفكر على إنشاء مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت، في سنة ١٩٦٣، هذه المؤسسة الغنية عن التعريف والرائدة في نشر الكتاب الفلسطيني، وهو لا يزال أمين سر مجلس أمنائها حتى اليوم.

وظن البعض أن انشغال الخالدي في النهوض بمؤسسة الدراسات على مدى الأعوام سيستغرق كثيراً من وقته، وبالتالي يحرم القرّاء

مزيداً من مؤلفاته وأبحاثه، والحق أن هذا الظن في غير محله لسببين: أولهما أن الخالدي تمكن من خلال المؤسسة من الإشراف على العديد من أهم المجلدات عن فلسطين، وسنأتي على بعض منها، وثانيهما أن الخالدي إنسان عالمي بكل ما في الكلمة من معنى، فهو لا يسعى لرقيّ شعبه وحده، بل لرقي الإنسان أيضاً، وهدفه ليس تعريف شعبه بقضيته وحده، بل تعريف شعوب العالم بها، لأنها قضية عالمية، وهو لذلك أراد لهذه المؤسسة التي أنشأها أن تصبح نموذجية، يجد الباحث فيها ـ من أي مكان في العالم ـ ما يسعى له من مصادر ومراجع عن فلسطين تاريخاً وحضارة ونضالاً.. وقد أضحت كما أرادها.

ونشر الخالدي حتى يومنا هذا عشرات المؤلفات والأبحاث والمقالات، وألقى عشرات المحاضرات، ودراساته تشمل بشكل عام الموضوعات الفكرية الإسلامية، والقومية العربية، والشؤون العربية السياسية، والفكر الصهيوني، والصراع العربي ـ الإسرائيلي؛ غير أن القسم الأكبر من نتاجه يتناول فلسطين وتاريخها وحضارتها ومجتمعها وقضيتها ونكبتها، وقد نُشر معظمه باللغتين العربية والإنجليزية، كما تُرجم بعضه إلى الفرنسية والإسبانية.

وكتب الخالدي كثيراً من أبحاثه عن فلسطين باللغة الإنجليزية أصلاً، ونشره في دوريات أجنبية، الأمر الذي أتاح لفكره سرعة الانتشار في الأوساط الثقافية والسياسية الغربية والإسرائيلية، غير أن المكانة العالمية التي وصل إليها كمفكر ومؤرخ لم تكن بسبب اللغة وحدها، بل بسبب نهجه الأكاديمي الذي لا يجد حتى الأعداء والخصوم ثغرة فيه، أولاً، بسبب تحليله المنطقي المستند إلى ما لا يُحصى من الحقائق والوثائق، وثانياً، لأنه من القلائل الذين يتمتعون بموهبة إيصال الرسالة إلى القراء بشتى الطرق، ودوماً، ضمن أكاديميته الصارمة، وبأسلوبه السهل الممتنع والآسر.

ولنبدأ مع المفكر والمؤرخ الخالدي من حيث انتهينا مع المؤرخين الثلاثة: دروزة والعارف والدبّاغ، أي نبدأ بمؤلفاته ومقالاته عن النكبة، ثم ننتقل إلى الجديد الذي قدّمه عن النكبة نفسها، لكن خارج الأطر التأريخية التقليدية.

من "سقوط حيفا" إلى "دير ياسين"

أول مرة خاطب فيها العقلُ الفلسطيني العقلَ الصهيوني وتغلب عليه بالمنطق والبرهان، كانت سنة ١٩٥٩، حين نشر الخالدي بحثه الشهير "لماذا غادر الفلسطينيون"، بالإنجليزية، والذي ردّ فيه على الأسطورة الصهيونية التي تقول إن الفلسطينيين رحلوا عن بلدهم تلبية لأوامر الملوك والرؤساء العرب، أي أن الصهيونية براء من أي اقتلاع أو ترحيل قسري، ولا تتحمل أي مسؤولية عن قضية اللاجئين، وأن المسؤولية تقع على هؤلاء القادة العرب الذين راحوا يوجهون نداءاتهم عبر الإذاعات لشعب فلسطين بالرحيل. وكعادتهم، ظن الصهيونيون أن في إمكانهم ادعاء ما يشاؤون، إذ لا حسيب ولا رقيب على أقوالهم وأفعالهم.

غير أن الخالدي تصدى لهم هذه المرة بعد قيامه بمراجعات دقيقة لجميع المصادر التي يمكن لمثل تلك التصريحات أو النداءات أن تتوفر فيها، هذا لو كانت صدرت حقاً، فراجع الوثائق والتصريحات الرسمية، وخصوصاً تلك الصادرة عن جامعة الدول العربية والهيئة العربية العليا، وراجع ثلاث صحف عربية رائدة في تلك المرحلة، وهي "الأهرام" المصرية، و"الحياة" اللبنانية، و"الدفاع" الفلسطينية، كما تمكن من الاطلاع على رصد للإذاعات العربية المعنية، وكانت الخلاصة أن لا نداءات على الإطلاق، صدرت عن القادة العرب تدعو الفلسطينيين إلى الرحيل، وإنما على العكس من ذلك، فإن الأوامر لهم كانت بالبقاء.[٦٠]

وكانت ردة الفعل لدى العاملين في الدوائر

الصهيونية عنيفة، ولإثبات ادعاءاتهم راحوا يركزون على هجرة العرب من حيفا بأوامر من القادة العرب، وهكذا ارتكبوا الخطأ نفسه مرة أُخرى، إذ لم يكن لديهم تصور حقيقي بعد عن هذا البروفسور الهادئ، وليد الخالدي، الذي لم ينفعل، وإنما انتظر حتى استكمل بحثاً موثقاً ومتكاملاً عن مأساة حيفا، ونشره في السنة نفسها، بعنوان: "سقوط حيفا".[٦١] وهكذا تغلب عليهم للمرة الثانية، وستليها مرات ومرات.

لقد قدّم الخالدي في مقالته "سقوط حيفا" شرحاً مستفيضاً للمخطط الصهيوني وللعمليات التي نفذها الصهيونيون في حيفا تكملة لما ابتدأوه في دير ياسين وطبرية، واللذين كانا يهدفان إلى إجلاء السكان العرب، كما شرح الموقف البريطاني وأثبت محاباة البريطانيين للصهيونيين، وهم الذين كانوا المؤتمنين والمسؤولين عن سلامة السكان العرب حتى ١٥ أيار/مايو، وشرح أيضاً أوضاع اللجنة القومية في حيفا منذ تأسيسها وأوضاع القيادة العسكرية المحلية، ونشر نصوصاً لبيانات صادرة عن الهيئة العربية العليا، وصوراً لبرقيات، وكلها تدعو الأهالي إلى البقاء.[٦٢] علاوة على ذلك، فإن المؤرخ المنصف لم يتغاضَ عن تجاهل القيادة العربية في دمشق لنداءات أهل حيفا التي راحوا يطلبون فيها المشورة والرأي: ماذا يفعلون؟[٦٣]

وتفحّص المؤرخ أحداث الأيام الأخيرة، وخصوصاً اليوم العصيب، يوم الخميس في ٢٢ نيسان/أبريل ١٩٤٨، فتحدث عن الاشتباكات التي جرت والاجتماعات الأخيرة للجنة العربية للطوارئ التي تألفت سريعاً من وجهاء المدينة، وعن تهرّب الجنرال ستوكويل من لقاء أي عربي، ولا سيما بعد أن كانت مقاليد المدينة أصبحت بأيدي الصهيونيين وفقاً لاتفاق صهيوني ـ بريطاني. وكانت قمة المأساة عندما جوبهت لجنة الطوارئ بعرض وحيد من طرف الصهيونيين، يفرض عليها الخيار بين الهدنة أو الموت، وجاء العرض بعد أن كان السكان قد غادروا بيوتهم هائمين تحت وابل القصف المستمر بقنابل المورتر. ويستشهد المؤرخ بروايات لشهود عيان وهم يصفون الرعب الذي سيطر على السكان الذين ملأوا الشوارع في محاولتهم النجاة بأنفسهم في ثياب النوم، وكيف اشتد التزاحم عندما سمعوا أن الإنجليز في الميناء على استعداد لحماية كل مَن يصل إلى هناك! حقاً بدت حيفا كأنها تشهد يوم القيامة.

أمّا أعضاء اللجنة الخاصة للطوارئ الذين قاموا بمبادرة وتحملوا المسؤولية وحدهم، فكان جوابهم رداً على الخيار بين الهدنة أو الموت: " 'لمّا كان العرب تحت وطأة الرعب الشديد يحاولون الهروب عبر منطقة الميناء، ولمّا كان الجنرال ستوكويل غير مستعد للتدخل'، فإن كل ما في وسعهم القيام به هو الطلب من الجنرال أن يأخذ الخطوات لتأمين وسائل نقل كافية لهؤلاء الناس ولما يمكنهم حمله من ممتلكاتهم المنزلية، والسماح لهم بالذهاب إلى الدول العربية." وذكر هؤلاء أنهم توقعوا عدم استطاعة ستوكويل تلبية مطلبهم هذا، ولذلك فإن عليه أن يعود إلى تحمّل مسؤولياته بالحفاظ على أمن المدينة، فيأمر بطرد الهاغاناه من الأحياء العربية التي احتلوها، بحيث تتمكن جموع العرب المحتشدة في الميناء من العودة إلى بيوتها.[٦٤]

وفي أي حال، فإن من غير الممكن الادعاء أنه كان هناك أوامر من القادة العرب لأهل حيفا بالرحيل، وهذا ما أثبته الخالدي. غير أن اهتمامه الكبير بحيفا لم يتوقف عند مقالته تلك، إذ إنه استمر متابعاً كل ما يُكتب عن حيفا، وهنا تفوق على سواه من الباحثين، فهو لا يعنيه ما يكتبه فحسب، بل إنه ذلك الأستاذ الذي يرحب بكل مَن يسأله. علاوة على ذلك، فإنه كتب مقدمة كتاب مي صيقلي عن "حيفا العربية"،[٦٥] وكتب تقديماً مطولاً عن أوضاع

فلسطين السياسية لمذكرات رشيد الحاج إبراهيم: "الدفاع عن حيفا وقضية فلسطين"، متابعاً مذكرات الرجل الكبير الذي حاول جاهداً إنقاذ حيفا.[٦٦] ولمّا أعادت مجلة *Journal of Palestine Studies* نشر مقالته عن حيفا، بعد خمسين عاماً، أضاف في مقدمته الجديدة ما كان استجد من وثائق ومذكرات.[٦٧]

لقد ألقى الخالدي عدة محاضرات عن النكبة ونشر العديد من المقالات والوثائق، عبر عشرات السنين، وصبّ اهتمامه على تهجير الفلسطينيين من وطنهم، وعلى دور الصهيونيين المجندين في قضية التهجير الجماعي/الترانسفير، وذلك قبل أن يكتب هذا أي باحث آخر. وهو يوم نشر دراسته الفريدة عن خطة دالت، في سنة ١٩٦١،[٦٨] كان أول باحث عربي يدق أبواب العالم الغربي، ذاكراً بأدق التفصيلات هذه الخطة، وشارحاً المرحلة الأولى التي سبقتها ومهدت لها. وهذه الخطة هي الخطة الأساسية للاستيلاء على الأراضي التي أُعطيت لليهود وفقاً لقرار التقسيم، فضلاً عن أراضٍ كانوا يحتلونها خارج حدود التقسيم، كما كان من أبرز أهدافها تفويت أي فرصة على تدخّل الجيوش العربية عسكرياً.[٦٩] أمّا التهجير الجماعي، وهو الهدف الرئيسي، فكان ابتدأ في المرحلة الأولى السابقة لخطة دالت، ولم يتوقف حتى يومنا هذا.

وكانت مقالة الخالدي عن "دالت" مفاجئة للصهيونيين، ذلك بأن الخطة كانت صدرت حديثاً بالإنجليزية، وهكذا بدأ الصهيونيون يعرفون حقاً مَن هو وليد الخالدي، فهو العقل الساهر الذي لا ينام، وهو وحده يلاحق الوثائق، والدراسات، والخرائط، وكل ما يتعلق بفلسطين، بمجرد صدوره. وقد مرّ ربع قرن من الزمان قبل أن يكتب المؤرخون الإسرائيليون الجدد عن خطة دالت.

ليت في إمكاننا التوقف عند كل ما كتبه الخالدي عن النكبة، أحداثاً، وخلفية، وأسباباً، وتفصيلات، وعمليات عسكرية، وتهجيراً... غير أننا نكتفي بالوقوف على أطلال دير ياسين، ورائعة المؤرخ عن هذه القرية الوادعة، توثيقاً ونهجاً ونصاً وأسلوباً، بعد واحد وخمسين عاماً على نكبتها.[٧٠]

لقد استغرق العمل على توثيق مجزرة دير ياسين نحو خمسة عشر عاماً، والكتاب يستند إلى عشرات الشهادات من السكان أهالي الضحايا والمقاتلين وممثل الصليب الأحمر الدولي، وإلى كل ما صدر عن المسؤولين الفلسطينيين والعرب، فضلاً عن شهادات من المصادر العبرية، لقادة وعناصر من منظمتَي الإرغون التي كانت بقيادة مناحم بيغن، وشتيرن التي كانت بقيادة يتسحاق شمير، وهما المنظمتان الإرهابيتان المسؤولتان عن المجزرة بشكل رئيسي؛ أمّا فيما يتعلق بمجموع المصادر والخرائط والجداول ومواقع البيوت بيتاً بيتاً، فكان الخالدي هو المشرف والموجه إلى جمعها، وهو المؤلف الذي جمع الشهادات ثم رواها حكاية موثقة متكاملة، ساعة بساعة، فجعل القارئ يحس كأنه يعيش لحظات اليوم الأخير من حياة دير ياسين العربية، ويكاد يرى ما جرى في أزقتها وبيوتها بعينيه، فيشاهد الجثث الملقاة على العتبات، للمسنين والنساء والشباب والصغار، وينتقل مع أصوات الطلقات النزقة، وأصوات الأنين، من بيت إلى بيت.

وممّا قاله الخالدي عن موقع المجزرة تاريخياً:

ودير ياسين إنما هي النموذج للصدام بين المنظمات الدولية الصهيونية ذات الطاقات المادية والبشرية الضخمة، وبين أرباب عائلات قروية متواضعة يدافعون عن عقر الدار وعتبتها، وعن الأم والزوجة والبنين والبنات والأحفاد. ودير ياسين غدت، إلى جانب هذا وذاك، رمزاً لتقصير القيادات الفلسطينية والعربية الفادح والفاضح نتيجة سماحها للعدو باستفراد قرى فلسطين قرية

قرية، ومدنها مدينة مدينة، سماحاً لا عذر له ولا غفران.[٧١]

ونتوقف إزاء ما رواه الأهالي عن المعلمة حياة بلابسة، ابنة القدس، ومعلمة بنات القرية، فكتب الخالدي عن شهادة سكينة إحدى تلميذاتها: "وشاهدت سكينة (٩ أعوام) معلمة المدرسة حياة في قميص نوم أصفر تساعد النساء على الهروب لمعرفتها بالطريق..."[٧٢] ثم ينتقل إلى شهادة ثانية، فيقول: "ويحدثنا داود زيدان (٢٥ عاماً) أنه كُلف إخراج المعلمة حياة وإيصالها إلى عين كارم، لكنها تمتنع وتقول: 'كيف أترك الناس يموتون وأهرب؟ أتمنى أن أُقتل هنا'. وأشارت بإصبعها إلى جبينها وعادت إلى القرية تحاول إسعاف الجرحى."[٧٣] ثم يروي المؤرخ الدقائق الأخيرة من حياة المعلمة حياة، نقلاً عن أم عيد التي كانت تحاول الهروب حاملة رضيعها، فتقول أنها رأت عيسى أحمد عليا مصاباً إصابة بالغة أمام منزله، والمعلمة حياة راكعة إلى جانبه تسعفه، "وإذ بالرصاص ينطلق فتصيب رصاصة المعلمة في جبينها وتسقط صريعة فوق عيسى (٥٥ عاماً) ـ الذي ما لبث أن فارق الحياة ـ وهي في الرابعة والعشرين من عمرها."[٧٤]

ويبقى هذا الكتاب "دير ياسين..." المتواضع شكلاً، والغني نصاً، وإلى أبعد الحدود، هو النموذج الذي يُحتذى.

بشأن النكبة خارج السرد التاريخي

ثمة ثلاثة مراجع رئيسية للخالدي لا يستطيع الباحث عن فلسطين وقضيتها ونكبتها إلاّ أن يعود إليها، وإن لم يكن بينها كتاب تاريخي تقليدي يشرح تاريخ النكبة، على غرار "النكبة" للمؤرخ عارف العارف، على سبيل المثال، أو على غرار مقالات الخالدي نفسه عن سقوط حيفا، مثلاً، لكن هذا لا يعني أن كلاً من هذه المجلدات الثلاثة ليس فريداً في بابه، وعرضه، وأسلوبه، وأهميته، بل إنه يتفوق على سواه لأنه لم يصدر مثيل له عن فلسطين ونكبتها بأقلام مؤرخين أو باحثين آخرين.

الكتاب الأول زمنياً هو كتابه الوثائقي الشهير: *From Haven to Conquest*، الذي لم يصدر سوى بالإنجليزية، وكان صدوره الأول في سنة ١٩٧١. وهو كتاب وثائقي بامتياز، أشرف الخالدي على انتقاء ما يحتويه من الوثائق والتقارير والنصوص المتعلقة بالقضية الفلسطينية والصهيونية، بدءاً من العهد الكنعاني حتى أيار/مايو ١٩٤٨، كما أنه كتب مقدمة مطولة هي كتاب بحد ذاتها، وهي المرجع.[٧٥] وفي القسم الأخير من الكتاب عناوين متعددة عن أحداث النكبة، ومن أبرزها تقرير جاك دي رينييه رئيس بعثة الصليب الأحمر الدولية في فلسطين عن مجزرة دير ياسين،[٧٦] ونصوص أُخرى عن سقوط حيفا، ومعركة القدس القديمة، وغيرها.

والكتاب الثاني هو "قبل الشتات" الذي يعتبره البعض أهم كتاب أصدره الخالدي، وهو يحتوي على أروع الصور عن فلسطين ما بين الربع الأخير من القرن التاسع عشر وسنة النكبة، ومَن يطّلع عليه يعرف كيف عاشت فلسطين وأهلها، ويعرف أنه كان لهذا الشعب حضارة. ولا تحتل الصفحات عن النكبة ما بين قرار التقسيم وأيار/مايو ١٩٤٨ سوى جزء محدود من الكتاب، غير أن المهم أيضاً هو الماضي الذي يشعر القارئ من خلال اطلاعه عليه بفداحة النكبة، وذلك من خلال الأبحاث التاريخية التي تتصدر الفصول، ومن خلال الكم الهائل من الصور التي يظهر من خلالها ذلك الشعب الحي المعطاء، وتلك المدن المزدهرة، والقرى الخضراء. ولمّا كان هذا الكتاب صدر بالإنجليزية أولاً، ثم بالفرنسية والإسبانية، فضلاً عن العربية،[٧٧] فإنه أصبح البداية لعادة سار عليها كثيرون من فلسطينيي الشتات، وهي عادة إهداء "الكتاب" إلى أصدقائهم الأجانب والعرب، في المناسبات، كأفضل هدية.

أمّا الكتاب الثالث "كي لا ننسى" فهو الكتاب، وهو المرجع عن قرى فلسطين التي دمرتها إسرائيل في سنة ١٩٤٨. هو كتاب في الجغرافيا والتاريخ والاقتصاد والسياسة والفلسطينولوجيا، وهو كتاب كل فلسطيني كي لا ينسى حقاً تلك القرى التي تُعدّ أكثر من ٤٠٠ قرية. والكتاب مصور، وموثق، قرية قرية، من تاريخها البعيد حتى زمن النكبة، بحيث إن القارئ يشاهد الصور، ويقرأ عن تدمير كل قرية، وسرعان ما يدرك أن العدوان الصهيوني لم يدمر الحجر وحده، بل إنه عدوان على الشعب والتاريخ والزرع والشجر، قبل الحجر. هو عدوان على كل شيء حي.[٧٨]

وما يميز هذا المجلد المرجعي الضخم أنه عمل تراكمي ومشترك بين أكثر من جامعة ومؤسسة، وهي: مؤسسة الدراسات الفلسطينية في واشنطن، وجامعة بير زيت، ومركز الجليل للأبحاث الاجتماعية. فإذا توقفنا عند مبحث واحد، دير ياسين مثلاً، فإننا نجد أن المبحث الرئيسي عنها يمتد على خمس صفحات مصورة، فيها حديث عن تاريخ القرية منذ العهد العثماني، وعن المجزرة، وعن احتلالها وتهجير سكانها، وعن المستعمرات الإسرائيلية على أراضيها، وأخيراً عن واقع القرية اليوم. ومما قاله الخالدي في النهاية:

لا تزال منازل القرية قائمة في معظمها على التل، وقد ضُمَّت إلى مستشفى إسرائيلي للأمراض العقلية أنشئ في موقع القرية... وثمة خارج السياج أشجار خرّوب ولوز، وبقايا جذوع أشجار زيتون.. أمّا مقبرة القرية القديمة... فمهملة وتكتسحها أنقاض الطريق الدائري الذي شُقّ حول تل القرية... وما زالت شجرة سرو باسقة وحيدة قائمة وسط المقبرة حتى اليوم.[٧٩]

لقد طرحنا في البداية أهم سلبيات النكبة، وهو انعدام التوازن بين المشاعر والشعارات وبين التحليل العقلاني المسؤول، غير أننا بعد انقضاء أكثر من ستين عاماً، نستطيع القول إن من أهم مميزات المؤرخ وليد الخالدي أنه امتلك القدرة الفائقة على التحليل العقلاني المسؤول، بتوازن مذهل مع عاطفته الجياشة تجاه كل مدينة وكل قرية وكل حجر في فلسطين.

الخالدي هو المؤرخ.

وأخيراً...

لو عدنا إلى إشكالية البحث الرئيسية، وهي الخوف من "إلحاق الظلم بمؤرخ ما صرف جهوده لتأريخ مراحل أُخرى أو للكتابة عن قضايا أُخرى..."، ثم لو عدنا إلى مؤرخينا الأربعة الكبار، لقلنا إن كلاً منهم كان نجماً يهتدي اللاحقون بكتاباته، ولقلنا أيضاً إن أي باحث عن فلسطين ونكبتها لا بد له من العودة إلى كل منهم.

غير أنني أعترف بأنه كان لي مع الأستاذ وليد الخالدي تجربة خاصة إزاء هذه الإشكالية، إذ أخشى أن أكون أنا مَن ألحق به الظلم، وذلك لغزارة مؤلفاته وأبحاثه التي ليس في الإمكان التوقف عندها كما يجب، وأعني بها، تحديداً، مؤلفاته عن النكبة، فما كان أمامي سوى أن أختار، ولهذا أجد نفسي مضطرة إلى الاعتذار.

أمّا أهم ما قام به الخالدي حتى اليوم، في كتاباته عن فلسطين عامة، وعن نكبتها خاصة، فهو النهج العلمي التأريخي الذي أرساه، وعلى أكثر من قاعدة، كما لم يفعل أي مؤرخ آخر سواه.

هو الأستاذ معلم الأجيال. ■

المصادر

١ محمد عزة دروزة، ″حول الحركة العربية الحديثة: تاريخ ومذكرات وتعليقات″، ٦ أجزاء (صيدا: المكتبة العصرية، ١٩٥٠ – ١٩٥١).

٢ محمد عزة دروزة، ″القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها: تاريخ ومذكرات وتعليقات″، جزءان (منظمة التحرير الفلسطينية ـ دائرة الإعلام والثقافة: دار يعرب في دمشق، لا تاريخ). (هذا الكتاب إعادة نشر لثلاثة أجزاء من كتاب المؤلف ″حول الحركة العربية الحديثة″، وهي: ج ٣؛ ج ٤؛ ج ٥).

٣ المصدر نفسه، الجزء الخامس، ″إنكلتره والحركة العربية″، ويحتوي تتمة الكلام عن القضية الفلسطينية من بعد قرار التقسيم إلى الآن ومواقف الإنجليز منها.

٤ ″مذكرات محمد عزة دروزة، ١٣٠٥هـ ـ ١٤٠٤هـ/١٨٨٧م ـ ١٩٨٤م: سجل حافل بمسيرة الحركة العربية والقضية الفلسطينية″، ستة مجلدات (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣).

٥ حوار مع محمد البصري على هامش المؤتمر القومي العربي التاسع في بيروت بتاريخ ١٩٩٩/٣/١٨.

٦ دروزة، ″حول الحركة العربية الحديثة...″، مصدر سبق ذكره، الجزء الخامس، ص ١٧٥.

٧ ″مذكرات محمد عزة دروزة...″، مصدر سبق ذكره، المجلد الخامس، ص ٦٢٠ – ٦٢١.

٨ المصدر نفسه، ص ٦٢١.

٩ محمد عزة دروزة، ″الوحدة العربية″ (بيروت: المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، ١٩٥٧). وقد نال هذا الكتاب الجائزة التشجيعية من المجلس الأعلى للفنون والآداب في الجمهورية العربية المتحدة في سنة ١٩٦١.

١٠ دروزة، ″حول الحركة العربية الحديثة...″، مصدر سبق ذكره، الجزء الخامس، ص ١٣.

١١ المصدر نفسه، ص ٦٥ – ٦٨.

١٢ المصدر نفسه، ص ٢٢.

١٣ المصدر نفسه، ص ٢٤.

١٤ المصدر نفسه، ص ٣١.

١٥ المصدر نفسه، ص ٧٣.

١٦ المصدر نفسه، ص ٩١.

١٧ انظر: ″مذكرات محمد عزة دروزة...″، مصدر سبق ذكره، المجلد الخامس، ص ٥٩٠.

١٨ راجع: بيان نويهض الحوت، ″محمد عزة دروزة: الشاهد.. والمفكر.. والمؤرخ من خلال مذكراته السداسية″، ″مجلة الدراسات الفلسطينية″، العدد ٣١ (صيف ١٩٩٧)، ص ٤٥ – ٧٦.

١٩ راجع: ″مذكرات محمد عزة دروزة...″، مصدر سبق ذكره، المجلد الأول، ص ٢٦٨ – ٢٧٨.

٢٠ عارف العارف، ″النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود″، ٦ أجزاء (صيدا: المكتبة العصرية، ١٩٥٦ – ١٩٦١).

٢١ عارف العارف، ″النكبة في صور: نكبة العرب في فلسطين″ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦١).

٢٢ العارف، ″النكبة: نكبة بيت المقدس...″، مصدر سبق ذكره، الجزء الخامس، ملاحق الكتاب.

٢٣ المصدر نفسه، الجزء السادس: ″سجل الخلود: أسماء الشهداء الذين استشهدوا في معارك فلسطين ١٩٤٧ – ١٩٥٢″.

٢٤ العارف، ″النكبة: نكبة بيت المقدس...″، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ٣.

٢٥ المصدر نفسه، ص ٤.

٢٦ المصدر نفسه.

٢٧ أُعد هذا التقرير السري في سنة ١٩٤٩، بناء على استجواب عدد من النواب العراقيين لحكومتهم

عن دور العراق في حرب فلسطين ونكبتها، وقد جاء رد الحكومة في هذا التقرير، وأبرز ما تضمنه القرارات السرية لجامعة الدول العربية التي لم تنشرها الجامعة قط. والأستاذ ساطع الحصري هو مَن أغنى مكتبة معهد الدراسات والبحوث التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة، بالمصادر والمراجع، ومنها المصدر السابق نفسه.

٢٨ العارف، "النكبة: نكبة بيت المقدس..."، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ١٥٩ – ١٦٦.

٢٩ المصدر نفسه، ص ٢٠ – ٢١.

٣٠ المصدر نفسه، ص ١٣٨.

٣١ المصدر نفسه، ص ١٥٢.

٣٢ المصدر نفسه، الجزء الرابع، ص ٧٩٠.

٣٣ المصدر نفسه، الجزء الأول، ص ٤٢.

٣٤ المصدر نفسه، ص ٤٨.

٣٥ المصدر نفسه، الحاشية في ص ٧٥.

٣٦ المصدر نفسه، ص ٦٥ – ٦٧.

٣٧ المصدر نفسه، الجزء الثاني، الحاشية رقم ١، ص ٣٤٣.

٣٨ المصدر نفسه، ص ٣٤٤.

٣٩ المصدر نفسه، ص ٤٥١.

٤٠ المصدر نفسه، الجزء الرابع، ص ٧٨٧ – ٧٨٨. وكان غلوب باشا هو المترجم في لقاء أبو الهدى مع بيفن.

٤١ عارف العارف، "النكبة في صور..."، مصدر سبق ذكره.

٤٢ المصدر نفسه، ص ٣١٢ – ٣١٣.

٤٣ المصدر نفسه، ص ٣١٥ – ٣١٦.

٤٤ المصدر نفسه، ص ٣٠٤.

٤٥ "أوراق عارف العارف، المجموعة الأولى، سجل الخلود: أسماء شهداء حرب فلسطين ١٩٦٧/ الفلسطينيون في سجون إسرائيل ١٩١٧ – ١٩٧٢" (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية ـ مركز الأبحاث؛ الدار العربية للموسوعات، لا تاريخ).

٤٦ من مطلع قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقي في رثاء شاعر النيل حافظ إبراهيم (١٩٣٢):
قد كنتُ أوثرُ أن تقولَ رثائي   يا منصفَ الموتى من الأحياء

٤٧ مصطفى مراد الدباغ، "بلادنا فلسطين"، الجزء الأول، القسم الأول (بيروت: منشورات دار الطليعة، ١٩٦٥)، ص ٧ – ٨.

٤٨ المصدر نفسه، الجزء الرابع، القسم الثاني، "في الديار اليافية" (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٢)، ص ٢٧٧ – ٢٨٧.

٤٩ مقابلة مع قسطنطين زريق أجرتها الباحثة في بيروت بتاريخ ١٩٩٧/١١/١٢.

٥٠ الدبّاغ، "بلادنا فلسطين: في الديار اليافية"، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٨.

٥١ المصدر نفسه، ص ٢٧٨ – ٢٧٩.

٥٢ المصدر نفسه، ص ٢٧٩.

٥٣ المصدر نفسه، الحاشية في ص ٢٧٨ – ٢٧٩.

٥٤ المصدر نفسه، ص ٢٨٠.

٥٥ المصدر نفسه، ص ٢٨١.

٥٦ المصدر نفسه، ص ٢٨٢.

٥٧ المصدر نفسه، ص ٢٨٣.

٥٨ المصدر نفسه، ص ٤٨٤.
٥٩ بشأن سقوط اللد في تموز/يوليو ١٩٤٨، انظر: المصدر نفسه، ص ٤٨٥ – ٤٨٨.
٦٠ Walid Khalidi, "Why Did the Palestinians Leave?" *Middle East Forum*, vol. 35, no. 7 (July 1959), pp. 70-73.
٦١ Kalidi, "The Fall of Haifa", *Middle East Forum*, vol. 35, no. 10 (Dec. 1959), pp. 22-32.
٦٢ Ibid., pp. 24-25.
٦٣ Ibid., p. 32.
٦٤ Ibid., p. 32.
٦٥ وليد الخالدي، تقديم كتاب مي إبراهيم صيقلي، "حيفا العربية ١٩١٨ – ١٩٣٩: التطور الاجتماعي والاقتصادي" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٨)، ص ٣ – ٥.
٦٦ وليد الخالدي، تقديم مذكرات رشيد الحاج إبراهيم ١٨٩١ – ١٩٥٣، "الدفاع عن حيفا وقضية فلسطين" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٥)، ص CXIX – XXXI.
٦٧ Walid Khalidi, "The fall of Haifa revisited", *Journal of Palestine Studies* 147, vol. XXXVII, no. 3 (spring 2008), pp. 30-36.
٦٨ Walid Khalidi, "Plan Dalet: The Zionist Master Plan for the Conquest of Palestine", *Middle East Forum*, vol. 37, no. 9 (November 1961), pp. 22-28.
٦٩ Ibid., p. 27.
٧٠ وليد الخالدي، "دير ياسين: الجمعة، ٩ نيسان/أبريل ١٩٤٨" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٩).
٧١ المصدر نفسه، ص ٥ – ٦.
٧٢ المصدر نفسه، ص ٧٨.
٧٣ المصدر نفسه، ص ٧٩.
٧٤ المصدر نفسه.
٧٥ Walid Khalidi (ed.), *From Haven to Conquest: Readings in Zionism and the Palestine Problem until 1948*, 2nd edition (Beirut: The Institute for Palestine Studies, 1987).
٧٦ Jacque de Reynier, "Deir Yasin: April 10, 1948", in Ibid., pp. 761-766.
٧٧ وليد الخالدي، "قبل الشتات: التاريخ المصور للشعب الفلسطيني، ١٨٧٦ – ١٩٤٨" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٧). وقد صدر الكتاب أول مرة بالإنجليزية في سنة ١٩٨٤ بعنوان: *Before Their Diaspora*.
٧٨ وليد الخالدي، "كي لا ننسى: قرى فلسطين التي دمرتها إسرائيل سنة ١٩٤٨ وأسماء شهدائها"، ترجمة حسني زينة، تدقيق وتحرير سمير الديك (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٧)، وقد صدر الكتاب أول مرة بالإنجليزية في سنة ١٩٩٢ بعنوان: *All That Remains*.
٧٩ المصدر نفسه، ص ٦٢٢.